الباب الثالث

ديكنز الشاب

عرضنا فى الباب الثانى من هذا الكتاب العوامل الأساسية والتيارات الجارفة التى اكتسحت ديكنز أيام شبابه ، فصهرته وخلقت منه أديباً لا يشق له غبار ومكنت من شخصيته فصقلتها . ولم تكن أيام صباه رحيمة به بل قاسية عليه إلى أبعد درجات القسوة . ونكاد نقول أنها نكلت به. واذاقته مرارة العيش . وهو لم يعد بعد العاشرة من عمره . وهى وإن كانت قد نكلت به حقا ، وعذبته ، فانما فعلت ذلك لتخلق منه رجلا كاملا فاضلا يفهم الحياة الفهم الصحيح . وهى وان كانت قد اضاعت عليه نعومة الصبا ، وعلى الاخص فترة الرخاوة أو الرفاهة التى يحتاج اليها كل صبى مثله ، يعبث ويلهو مع غيره من صبية وفتيان ، فانما حرمته كل ملذات الدنيا لتخلق منه كاتباً ممتازاً وأديباً بارعاً ، وفناناً يتذوق الجمال ويشيد به ، ويرسم بريشته البارعة صوراً حية للانسانية المعذبة أو للبشرية التى قاست وتقاسى الوان الظلم والجور والعدوان على تعاقب الأيام وتكالب السنين . . .

وحاولنا جهد المستطاع أن نذكر كلمات ديكنز نفسه عن هذه الأيام أيام الشدائد ـ التى مرت به بالرغم من أنه قد أحتفظ بها لنفسه مدة طويلة . فقد أسدل عليها الستار . وكان مجرد ذكراها أو اثارتها أمامه يلهب فيه نار الحقد والثورة الدفينة . حتى أنه ليصرح فى نهاية الباب الثانى بأن ذكرى هذه الأيام ظلت سراً لا يبوح به لأحد كائنا من كان مدة طويلة وقد رأى أخيراً ازاء الحاح معارفه ، واصدقائه من الكتاب المعاصرين له أمثال

فورستر أن يتحدث عنها بنفسه ، وفى حديثه عنها لوعة وحسرة . وإن كانت هذه اللوعة وتلك الحسرة قد تحولتا فيما بعد إلى اعتزاز بالنفس واعتداد بالرأى ، فبرهنتا على أن الأديب الكبير كان صارما على نفسه إلى حد بعيد قاسيا عليها وعلى الزمن ، فامضى فترة طويلة وهو يصارع السنين ويتحداها وينازلها حتى كتب له النصر فى آخر المطاف . فتبوأ تلك المكانة الرفيعة التى لا يزال يطل منها على عشاق الأدب الانجليزى . ويحتل عندهم مكانة سامية تضارع مكانة شكسبير وثاكرى وغيرهما من غير جدال .

والعجيب فى أمر ذلك الكاتب الكبير أنه لم يستسلم للفقر مدة قصر يده وشدة حاجته . ولم يفقد أو يحاول أن يفقد موهبة من مواهبه . فقد تعهد ملكات الفكاهة بالرعاية . وحافظ على مداومة القراءة والكتابة . وأمكنه فى فترات قصيرة أن يسمو بأسلوبه ويحسنه شيئا فشيئا بنفسه . ولعل سرعة بديهته . وقوة فهمه واستساغته للاشياء جعلته يتناسى ما كان فيه من فقر مدقع ومن يدرى فربما كانت له خير مؤنس فى عزلته ، وخير مخفف لبلواه .

ولنترك ديكنز يحدثنا قليلا عن الفترة الهامة التى مرت به بعد بلوغه الثانية عشرة من عمره . وهى فترة دخوله المدارس ، واستمراره فى حلبة التدريس . « كانت هنالك مدرسة فى « هامبستد رود » يديرها رجل يدعى جونز ارسلنى اليه والدى مرة للحصول على طلب إلتحاق . وهنالك قابلته وهو يجهز الطعام لتلاميذه . فاعطانى الورقة المطلوبة وهو يرجو فى نفسه أن أكون طالبا عنده . فكان سرورى بالغا لأن الأيام بدأت تحقق لى ما كنت أطمع فيه من آمال ... »

واستمر ديكنز طالبا بمدرسة ولنجتون مدة سنتين ، تركها وهو فى الرابعة عشرة من عمره . وفى رواية « كوبرفيلد » يصور لنا بعض مناظر هذه المدرسة وما كان له فيها من ذكريات وحوادث طريفة . فيقول مثلا : إن الطلبة كانوا يحتفظون فى أدراجهم بحرذان بيضاء أو بعصافير . ويقول

أيضا . إن الطلبة علمت أو درست هذا الجرذان والعصافير خيرا مما يعلم الأساتذة طلبتهم العلوم والآداب ! !

ثم يطيل الحديث عن هذه الأيام فيقول إن فأرا أبيض اللون ، كان يعيش فى ركن من أركان القاموس اللاتينى ، تعلم كيف يتسلق الدرج ، ويقفز من هنا وهناك بخفة ومهارة حتى إذا ما أنهكه التعب سقط فى محبرة وخرج منها أسود اللون بعد أن كان أبيض ناصعاً ! . .

لم يترك ديكنز حادثة من حوادث الطفولة إلا وذكرها فى رواياته . وعلى الأخص تلك الحوادث الطريفة التى كانت تجرى فى مدرسة ولنجتون . فقد كتب عنها كثيراً ونذكر أيضا بعض ماقاله عنها « ذهبنا مرة لنلقى نظرة على المدرسة القديمة فلم نعثر لها على اثر . . فقد بنى مكانها مخزن كبير للقضبان الحديدية وهكذا عبثت الأيام بمدرستنا المحبوبة فحولتها إلى أنقاض . . »

ويقول الدكتور هنرى دانسون رفيق ديكنز أيام مدرسة ولنجتون : كان ديكنز على ما اتذكر شابا أنيقا ، معتداً بنفسه إلى درجة بعيدة ، لا يسير إلا ورأسه مرفوع إلى أعلى . . وكان من الطلبة النجباء الأذكياء . وأظن أنه فى الوقت الذى كنا نلعب فيه بالجرذان والطيور فى أوقات المدرسة كان صاحبنا ينكب على كتابة القصص القصيرة ، وكنا نروجها فى إحدى الأندية التى كنا ننطلق اليها عقب انتهاء اليوم الدراسى . كما كنا نقوم كثيرا بتمثيل الروايات القديمة وكان دور ديكنز دائما فى المقدمة . .

« ولعل من طريف ما حدث أن ديكنز الشاب كان بالرغم من خلقه القويم ما كراً يميل إلى العبث بالناس . فقد جمعنا مرة وتظاهرنا بأننا فقراء متشردين وتبعثرنا على جوانب الطريق ، إيحاء منه ، نجمع الصدقات من السيدات العجوزات وهن راجعات إلى بيوتهن . فانتهرتنا سيدة بقولها : انى لا أعطى صدقة لأولاد متشردين . . ولكن منظر ديكنز أثار شفقة احداهن فهمت باعطائه صدقة . فما كادت تفعل ذلك حتى اغرق صاحبنا فى ضحك طويل

اضطرنا أن نفر جميعا من أمامهن خوفا من ألسنتهن الطويلة !! »

ويحدثنا رجل آخر عن ديكنز يدعى ادوارد بلاكمير فيقول « كنت أعرف أبويه جيداً . وقد سألانى مرة إن كان فى أستطاعتى أن أجد له عملا . وقد كان شاباً وجيها ذكياً ، فعينته كاتباً فى مكتبى . وابتدأ عمله فى مايو عام ١٨٢٧ وتركه فى نوفمبر ١٨٢٨ . ولدى الآن دفتر يومية كان يقيد فيه الحسابات . ودفتر مصروفات كان يقيد فيه مرتبه الذى بلغ ثلاثة عشر شلنا ونصف شلن فى الأسبوع . ثم زيد فيما بعد إلى خمسة عشر شلنا فى الأسبوع . وقد كان ديكنز قوى الملاحظة جداً لدرجة أنه ذكر كثيرا من الحوادث التى جرت فى مكتبى على صفحات كتابه « بكويك بيبرز » وكتابه الآخر « نكلبى » . ولن أغالى إذا قلت إن بعض شخصيات رواياته هى أشخاص اعرفهم أنا جيد المعرفة . وقد تعرف ديكنز أيام عمله بصديق كان يذهب معه باستمرار إلى المسرح . ثم رأيته فيما بعد مخبراً صحفياً نابهاً . ثم فقدت أخباره حتى ظهرت للعالم الأنجليزى روايته الخالدة « بيكويك بيبرز » حينئذ تذكرته وتذكرت مواهبه التى ضاعت فى غمرات الحياة حتى قيض لها أخيرا الظهور فتلألأت فى سماء لندن من جديد .. »

واستمر ديكنز يدرس العلوم وينكب عليها فى أوقات فراغه معتمدا على نفسه فى تفهم كل مايقرأه ويدرسه من علوم وآداب . ولقد اثارت خصوبة ذهنه ، وقوة ذكائه اعجاب كثير من الناس . حتى لقد التقى رجل معروف بابيه مرة ليسأله أين تعلم ابنه ؟ فاجابه الاب بابتسامة عريضة : لماذا ياسيدى ؟ لقد علم نفسه بنفسه فكان حديث العالم اجمع !! ..

بدأ ديكنز يدرس الأختزال ويؤهل نفسه لعمل جديد فتح أمامه . ثم ليكتسب خبرة أوسع فى القراءة تردد بكثرة على المتحف البريطانى كما فعل غيره من كبار الكتاب الانجليز الذين اكتسبوا مجدهم عن طريق المثابرة على القراءة والبحث والاستقصاء . ولقد بلغ من قوة المامه بكل علم من

العلوم أن من قابله فيما بعد من كبار الكتاب المعاصرين له لم يشك قطعاً فى انه قاسى ما قاسى فى أمر تعليمه ، ولم تمكنه الفرصة من الاستمرار فيه، بل لقد كان يظن بعضهم انه حائز على أكبر درجات فى الأدب من أعرق جامعات انجلترا واروبا . .

ولذا يقول ديكنز فى هذا الصدد : كل ما حاولت عمله فى الحياة ، عملته عن صدق وعزيمة . فاذا ما انقطعت لعمل شيء أو للحصول عليه تفانيت فيه حتى احصل عليه . ولم أضع يدى مرة على شيء حتى كان لى ذلك الشيء . . لقد اتخذت لنفسى طريقاً سليماً . وتبعت قانونا خاصاً لم أحد عنه قيد انمله فكان لى ما أردته أو طمعت فيه بقوة صبرى وجلدى وعزيمتى القوية التى لم تعرف الضعف أو الخور يوما . . .

ثم يقول عن الصعوبات التى لا قاها فى تعليم الاختزال : كانت كتابة الاختزال شاقة تحتاج إلى قوة صارمة . أو على الأقل كانت من الصعوبة بمكان انها تحتاج إلى نفس القوة التى يستخدمها الأنسان لدراسة ستة لغات !! . .

وقد أجاد ديكنز الاختزال حتى برع فيه براعة كان يحسده عليها أقرانه: وظل يعمل عاملين كاملين كمخبر فى الجرائد . وفى الوقت ذاته كان يؤهل نفسه لأن يكون مخبراً برلمانيا فلم تكن تمر عليه صغيرة أو كبيرة إلا وكان يدونها ويعلق عليها، ويبحث علتها. فأجاد فنه الصحفى فى وقت قصير، وأمكنه أن يصل به إلى درجة رفيعة لا تزال تتوج هامة الصحافة الانجليزية من بدء القرن التاسع عشر إلى وقتنا هذا من غير مراء . . .

ابتدأ ديكنز عمله الصحفى وهو فى التاسعة عشرة من عمره . وكان أبوه قد التحق كمخبر لإحدى الجرائد اليومية ثم مخبرا لجريدة « الكرونكل » فيما بعد .

وعمل ديكنز أول ما عمل فى جريدة يومية اسمها « تروسن » ويذكرنا

فورستر بحادث طريف حدث فى ذلك الوقت . فقد اضرب الصحفيون لمطالب خاصة بهم . ولم يجدوا من بينهم خير من يطالب بحقوقهم غير شاب كانت فى نبراته قوة اهتز لها أصحاب الجرائد . وفى اختياره اللفظ والمعنى ما سحرهم وجعلهم يطأطئون رؤوسهم ويجيبون فى قليل من الوقت ما أراده وأضرب له الصحفيون . وكان ذلك الشاب هو ديكنز الذى لم يكن قد بلغ العشرين من عمره بعد . . ثم عمل ديكنز فيما بعد فى جريدة اسمها « مرآة البرلمان » وفى عامه الثالث والعشرين عمل مخبراً لجريدة «الكرونكل الصباحية» .

أما محاولاته إزاء المسرح فيرجع تاريخها إلى ما قبل التحاقه بالصحافة . فقد دأب على الذهاب إلى المسرح كل ليلة والاشتراك فى أدوار خاصة . ولندعه يقص علينا قصة التحاقه بأحد المسارح إذ يقول « كتبت إلى بارتلى ، مدير المسرح ، وقلت له أننى صغير ، ومقدر ظرفى تمام التقدير ، وماذا يجب على القيام به من أدوار تتناسب مع سنى ، وذكرت له أن شخصيتى نادرة وقوية . ولى المقدرة على تمثيل ما يختلج فى نفوس الكثيرين فى مهارة وحذق . وأذكر أننى كتبت هذه الرسالة من أحد المكاتب المجاورة لعملى . فجاءنى الرد بسرعة . ولا بد أن شيئاً قوياً فى كتابى قد أستلفت نظر مدير المسرح لأنه سرعان ما ذكر فى رده أن المسرح منهمك فى إعداد مسرحية « الاحدب » وعلى أن أنتظر بعض الوقت . فسيصلنى خطاب آخر فى هذا الصدد ، ولم يمض أسبوعان حتى جاءنى رد آخر بمقابلة شارلس كمبل فى يوم محدد فى المسرح . وكان على شقيقتى « فانى » أن تعمل معى فى المسرحية التى خصص لى فيها دور هام . وحدث انه فى اليوم الموعود مرضت ، لبرد شديد الم بى والتهاب فى وجهى . فكتبت أعتذر ووعدتهم أن أظهر فى الموسم القادم . ولم يمض وقت طويل حتى فتح أمامى عمل هام فى جريدة «الكرونكل» . وكان لى شغف زائد بالاعمال الصحفية . فبدأت أكتب لأكتساب المال . رغم أن هذا لم يكن هدفى ولم افكر ثانيا فى المسرح . .

ويقول ديكنز بمناسبة ذكرى كتابة هذه القصة التى نشرت له لأول مرة فى

هذا اليوم سلكت طريق وستمنستر هول وأخذت أسير لنصف ساعة لأن عيني كان يغمرهما فرح وسرور، وانا أشق طريقي في ذلك الشارع الذي لم أحلم بالسير فيه. ثم يقول أيضا إن ما بذله من مجهود جبار أيام عمله بالجرائد قد افاده إفادة عظيمة. وخلق منه كاتباً المعيا يشار اليه بالبنان. فقد فتحت له الصحافة حقولا واسعة للتجربة والاختبار وهو ذلك الرجل الدقيق الملاحظة، القوى الاثر فاكتسب منها خصوبة الذهن، وغزارة المادة، ووفرة التمرين، وسرعة النكته، وقوة التهكم والسخرية . .

ويقول ديكنز أيضاً في هذا الصدد من رسالة له إلى صديقه فورستر: لم يكن هناك رجلا واحداً له علاقة قوية بالصحافة في تلك الأيام الخوالى، أو صاحب تجربة مثلى. فقد كنت دائما دائب البحث والاستقصاء وراء الأشياء، ولم يكن الغرض من عملى قضاء واجب أو اداء عمل أيا كان. بل كان الغرض الاساسى الذى عملت له، وكرست له وقتى وشبابى هو العمل الجدى، واكتساب التجربة والخبرة. وكان هذا سر نجاحى . .

وفي خطاب له في مايو عام ١٨٦٥ في حفلة «الاعتماد المالى للصحافة» قوله «لست هنا لاتحدث عن موضوع لا يمت الينا بصلة أو لا نعرف عنه شيئا. بل أنا منكم يا رفاق . . فقد عملت كمخبر في مجلس النواب وانا صبي. رغم انى تركت الصحافة منذ ثلاثين عاما تقريباً: بعد أن بذلت فيها مجهود الجبابرة ذلك المجهود الذى لا يزال يشهد لى بمواقف جليلة. ولا زلت أحتفظ لنفسى بذكريات عزيزة لهذه الفترة السحيقة. فكم من ساعات طويلة كنت اقضيها وأنا واقف أكتب الخطب الطويلة والمناقشات الصاخبة بين أعضاء مجلس النواب. يالها من أيام عزيزة كنت اسافر إبانها بين الاحراش والغابات وأقطع القفار بحثا وراء معلومات تهم الرأى العام! وكم من مرات عديدة وقفنا فيها تحت المطر الغزير وهو ينهمر كأفواه القرب، يظللنى بعض الزملاء وأنا أكتب خطابا حماسيا في حفلة انتخاب! لقد ادميت ركبتاى من كثرة كتابتى عليهما أيام مجلس النواب، وأدميت قدماى من الوقوف عليهما

الساعات الطويلة فى مجلس اللوردات حيث كنا نتزاحم فيـــه ونتحاشر كالخراف ! ثم نعود آخر الأمر إلى مكاتبنا القديمة فى العاصمة لتزويد القراء بآخر معارك السياسة الحامية الوطيس . وكم كانت لهذه الاعمال لذة لا تعادلها لذة الاعتداد بالنفس ، والسعى وراء جمع الاخبار والحقائق التى ينتظرها ملايين الناس فى انحاء الارض . ومن العجيب أنه بالرغم من تقادم العهد بهذه الايام والذكريات ، فقد لازمتنى عادة غريبة لا أعرف كيف أتخلص منها . فاذا جلست اليوم على مائدة لاستمع إلى خطاب أحد الساســـة أو المحاضرين ، فسرعان ما تجرى يدى على المـــائدة تختزل كلمات الخطيب أو المحاضر ! . .

ثم تعـارف ديكنز فيما بعد على أحـد أقطاب الصحافة فى ذلك الوقت المستر هو جارث وقد ازدادت العلاقات العائليـــة بينهما فيما بعد . وتعاقد ديكـنز معه على أن يكـتب له عدة مقالات لمشروع افتتاح جريدة مسائيـة « الكورنكل المسائية » وأرتفع مرتبـــه على الاثر من خمسة جنيهات إلى سبعة جنيهات فى الأسبوع .

وفى أبريل أعلنت جريدة التايمز خبر زواج تشارلس ديكـنز بكاترين الأبنة الكـبرى لهوجارث أحد أصحاب جريدة « الكرونكل » .